قال خاقان : فى تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس ، وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان .

* مثنى بن بشير :

قال مثنى بن بشير : دخل أبو عبد الله المروزى على شيخ من أهل خراسان ، وإذا هو قد استصبح فى مسرجة خزف[1] ، من هذه الخزفية الخضر ، فقال له الشيخ : لا يجىء ـ والله ـ منك أمر صالح أبدًا ، عاتبتك فى مسارج الحجارة ، فاعتبتنى[2] بالخزف ! أو ما علمت أن الخزف والحجارة يحسوان[3] الدهن حسوا ؟ قال : جعلت فداك ! دفعتها إلى صديق لىّ دهان فألقاها فى المصفاة شهرًا حتى رويت من الدهن ريا لا تحتاج معه أبدًا إلى شىء قال : ليس هذا أريد ، هذا دواؤه يسير ، وقد وقعت[4] عليه ، ولكن ما علمت أن موضع النار من المسرجة فى طرف الفتيلة لا ينفك من إحراق النار وتجفيفه ، وتنشيف ما فيه ، ومتى ابتل بالدهن وتسقاه ، عادت النار عليه ، فأكلته ، هذا دأبها ، فلو قست ما يتشرب ذلك المكان على الدهن ، بما يستمده طرف الفتيلة منه ، لعلمت أن ذلك أكثر . وبعد هذا فإن ذلك الموضع من الفتيلة والمسرجة لا يزال سائلاً جاريًا . ويقال إنك متى وضعت مسرجه فيها مصباح ، وأخرى لا مصباح فيها لم تلبث إلا ليلة أو ليلتين حتى ترى السفلى ملآنة دهنًا[5] . واعتبر أيضًا ذلك بالملح الذى يوضع تحت المسرجة والنخالة التى توضع هناك لتسويتها وتصويبها[6] ، وكيف تجدهما ينعصران دهنا . وهذا كله خسران وغبن ، لايتهاون به إلا أصحاب الفساد[7] . على أن المفسدين إنما يطعمون الناس ، ويسقون الناس ، وهم على حال يستخلفون شيئًا ، وإن كان روثًا[8] ، وأنت إنما تطعم النار وتسقى النار ، ومن أطعم النار جعله الله يوم القيامة طعامًا للنار ! قال الشيخ : فكيف أصنع جعلت المسرجة قال : تتخذ قنديلاً ، فإن الزجاج أحفظ من غيره ، والزجاج لا يعرف الرشح ولا النشف ، ولا يقبل الأوساخ التى لا تزول إلا بالدلك الشديد أو بإحراق النار . وأيهما كان فإنه يعيد المسرجة إلى العطش الأول . والزجاج أبقى على الماء والتراب من الذهب الإبريز ، وهو مع ذلك مصنوع ، والذهب مخلوق ، فإن فضله الذهب بالصلابة ،

---

(١) استضاء بها .
(٢) أزلت عتابى .
(٣) يشربان .
(٤) اهتديت .
(٥) يعنى أن المسرجة إذا وضعت فوق أخرى فارغه فإن فتيلة المسرجة العليا ، تسقط الزيت فى السفلى ، وبعد مدة تمتلىء .
(٦) أمالتها ليصل الدهن إلى طرف الفتيلة .
(٧) المسرفون .
(٨) أى تبقى منهم مخلفات أيًا كانت .

فضله الزجاج بالصفاء. والزجاج بجل والذهب ستار. ولأن الفتيلة إنما تكون فى وسطه، فلا تحمى جوانبه بوهج المصباح، كما تحمى بموضع النار من المسرجة. وإذا وقع شعاع النار على جوهر الزجاج، صار المصباح والقنديل مصباحاً واحداً ورد[1] الضياء كل واحد منهما على صاحبه. واعتبر ذلك بالشعاع الذى يسقط على وجه المرآة، أو على وجه الماء وعلى الزجاجة، ثم انظر كيف يتضاعف نوره، وإن كان سقوطه على عين إنسان أعشاه، وربما أعماه، وقال الله جل ذكره ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، والمصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدى الله لنوره من يشاء**﴾[2] والزيت فى الزجاجة نور على نور وضوء على ضوء مضاعف، هذا مع فضل حسن القنديل على حسن مسارج الحجارة والخزف. وأبو عبدالله هذا كان من أطيب الخلق، وأملحهم بخلا، وأشدهم رياء، أدخل ذى اليمينين طاهر بن الحسين، وقد كان يصرفه بخراسان بسبب الكلام[3] فقال له: منذ كم انت مقيم بالصداق يا أبا عبدالله؟ فقال: أنا بالصداق منذ عشرين سنة وأنا أصوم الدهر منذ أربعين سنة. قال: فضحك طاهر وقال: سألناك يا أبا عبدالله عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين!

* رجل من مرو:

ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر[4]، وذلك: أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر وينزل على رجل من أهل الصداق فيكرمه ويكفيه مؤنته. ثم كان كثيراً ما يقول لذلك الصداق: ليت أنى قد رأيتك بمرو حتى أكافئك لقديم إحسانك وما تجدد لى من البر فى كل قدمه، فأما ها هنا فقد أغناك الله عنى.

[قال: فعرضت لذلك العراق بعد دهر طويل حاجة فى تلك الناحية، فكان مما هون عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب، مكان المروزى هناك. فلما قدم مضى نحوه فى ثياب سفره وفى عمامته وقلنسوته وكسائه ليحط رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه.

[فلما وجده قاعداً فى أصحابه أكب عليه وعانقه، فلم يره أثبته[5] ولا سأل به[6] سؤال من

---

(١) معنى ورد هنا: عكس.
(٢) سورة النور: ٣٥.
(٣) الكلام أى علم الكلام أو التوحيد.
(٤) وجه الدهر: قديمًا..
(٥) عرفه.
(٦) الباء حرف جر بمعنى (عن) وتأتى كثيرًا كذلك بعد السؤال، كما فى قوله تعالى: ﴿فاسأل به خبيرًا﴾

رآه قط ! قال العراقى فى نفسه : لعل انكاره اياى لمكان القناع ، فرمى بقناعه وابتدأ مساءلته ، فكان له أنكر ! فقال : لعله أن يكون أنما آتى[1] من قبل القلنسوة ، فنزعها ، ثم انتسب وجدد مساءلته ، فوجده أشد ما كان إنكارًا . قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة . وعلم المرزوى أنه لم يبق شىء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، قال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك .

* ما يفعله أهل خراسان :

وزعموا أنهم[2] ربما ترافقوا وتزاملوا فتناهدوا وتلازقوا[3] فى شراء اللحم ، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط ، ثم أرسلة فى خل القدر والتوابل ، فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه وقد علمه بعلامة ، ثم اقتسموا المرق ، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة ، حتى يبقى الحبل لا شىء فيه ، ثم يجمعون خيوطهم . فإن أعادوا الملازقة أعادوا تلك الخيوط لأنها قد تشربت الدسم وزويت .

[وليس تناهدهم من طريق الرغبة فى المشاركة . ولكن لأن بضاعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذى يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤنة تخف أيضًا فى الحطب والخل والثوم والتوابل ، ولأن القدر الواحد أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر ، وإنما يختارون السكباج[4] لأنه أبقى على الأيام وأبعد من الفساد .

* حديث أبى إسحاق :

حدثنى أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام قال : قلت مرة لجار كان لى ، من أهل خراسان : أعرنى مقلاكم ، فإنى أحتاج إليه . قال : لقد كان لنا مقلى ولكنه سرق .

[فاستعرت من جار لىّ آخر ، فلم يلبث الخراسانى أن سمع نشيش اللحم فى المقلى ، وشم الطباهج[5] ، فقال لى كالمغضب : ما فى الأرض أعجب منك ! لو كنت خبرتنى أنك تريده للحم أو شحم لوجدتنى أسرع إليك به ، إنما ظننتك تريده للباقلى ، وحديد المقلى يحترق إذا كان الذى يقلى فيه ليس بدسم . وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج ، والمقلى بعد الرد من الطباهج أحسن حالاً منه وهو فى البيت !؟

---

(١) أتاه جهله بى .

(٢) زعموا أى الراوون لحكايات أهل مرو ، وأنهم أى أهل مرو .

(٣) تلازقوا : كانوا معًا ، والمراد المناهدة والمعنى العام اكتسبوا واجتمعوا .

(٤) السكباج نوع من اللحم المطبوخ بالخل . وهى معربة عن الفارسية .

(٥) طعام مؤلف من بيض وبصل ولحم . وهى معربة عن الفارسية أيضًا .

* كلام النظام :

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام : دعانا جار لنا فأطعمنا تمرًا وسمنًا سلاء[1] ، ونحن على خوان ليس عليه إلَّا ما ذكرت ، والخراسانى معنا يأكل ، فرأيته يقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك ، فقلت لرجل إلى جانبى : ما لأبى فلان يضيع سمن القوم ، ويسىء المؤاكلة ، ويغرف فوق الحق ؟ قال : وما عرفت علته ؟ قلت : لا والله ! قال : الخوان خوانه فهو يريد أن يدسمه ليكون[2] كالدبغ له ، ولقد طلق امرأته ، وهى أم أولاده ، لأنه رآها غسلت خوانًا له بماء حار ، فقال لها : هلا مسحته ؟!!

وقال أبو نواس : كان معنا فى السفينة ـ ونحن نريد بغداد ـ رجل من أهل خراسان ، وكان من عقلائهم وفهمائهم . فكان يأكل وحده ، فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ قال : ليس علىّ فى هذا الموضع مسألة ، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة لأن ذلك هو التكلف . وأكلى وحدى هو الأصل ، وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل .

* حديث السندى :

وحدثنى إبراهيم بن السندى قال : كان على « ربع الشاذروان » شيخ[3] لنا من أهل خراسان ، وكان مصححًا[4] ، بعيدًا من الفساد ، ومن الرشا ، ومن الحكم بالهوى ، وكان حفيًا[5] جداً ، وكذلك كان فى امساكه ، وفى بخله ، وتدنيقه[6] فى نفقاته ، وكان لا يأكل إلَّا ما لابد منه ، ولا يشرب إلَّا ما لابد منه غير أنه إذا كان فى غداة كل جمعة ، حمل معه منديلاً فيه جردقتان[7] . وقطع لحم سكباج مبرد . وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، وأخرى فيه أشنان[8] ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال[9] ، ومضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ[10] ، وينظر موضعًا تحت شجرة ، وسط خضرة ، وعلى ماء جار ، فإذا وجد ذلك ، جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة . ومن هذا مرة فإن وجد قيم ذلك البستان[11] رمى إليه بدرهم . ثم قال : اشتر لى بهذا ، أو أعطنى بهذا رطبا ـ إن كان فى

---

(١) سلاء : مطبوخًا (مقدوحًا) .
(٢) التدسيم .
(٣) « ربع الشاذروان » حى من أحياء بغداد العباسية . وكان عليه شيخ : أى حاكمه .
(٤) قويم الخلق .
(٥) أى فاحصًا مدققًا .
(٦) تضييقه .
(٧) الجردق : الرغيف . معرب عن الفارسية .
(٨) نبات تغسل به الأيدى والملابس .
(٩) وهى ما تخلل به الأسنان .
(١٠) مكان ببغداد .
(١١) من يقوم بأمره .

زمان الرطب ـ أو عنبا ـ إن كان فى زمان العنب ـ ويقول له : إياك إياك أن تحابينى ولكن تجود لى[1] فإنك إن فعلت لم آكله . ولم أعد إليك ، واحذر الغبن[2] ، فإن المغبون لا محمود ولا مأجور . فإن أتاه به أكل كل شىء معه وكل شىء أتى به ، ثم تخلل وغسل يديه ، ثم يمشى مقدار مائة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ويمضى إلى المسجد . هذا دأبه كل جمعة .

قال إبراهيم : فبينا هو يومًا من أيامه يأكل فى بعض المواضع ، إذ مر به رجل فسلم عليه ، فرد السلام ثم قال : هلم عافاك الله . فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعًا . يريد أن يطفر[3] الجدول أو يتعدى النهر ، قال له مكانك ! فإن العجلة من عجل الشيطان ، فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراسانى وقال : تريد ماذا ؟ قال أريد أن اتغدى ! قال : ولم ذلك ، وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟ قال الرجل : أوليس قد دعوتنى ؟ قال : ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام ! الآبين[4] فيما نحن فيه أن نكون إذا كنت أنا جالس ، وأنت المار ، أن تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ محييا لك : وعليك السلام ، فإن كنت لا آكل شيئًا سكت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت ، وقعدت أنا على حالى . وإن كنت آكل فها هنا آبين آخر : وهو أن أبدأ أنا فأقول : هلم ، وتجيب أنت فتقول : هنيئًا . فيكون كلام بكلام ! فأما كلام بفعال ، وقول بأكل . فهذا ليس من الإنصاف ! وهذا يخرج علينا فضلاً كثيرًا[5] ! قال : فورد على الرجل شىء لم يكن فى حسابه ، فشهر[6] بذلك فى تلك الناحية ، وقيل له : قد أعفيناك من السلام ومن تكلف الرد . قال : ما بى إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفى أنا نفسى من « هلم »[7] وقد استقام الأمر .

* ابن يسير يتحدث عن الوالى الفارسى :

ومثل هذا الحديث ما حدثنى به محمد بن يسير عن والٍ كان بفارس ، إما أن يكون خالدًا أخًا مهروية ، أو غيره . قال :

بينا هو يومًا فى مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره وقد احتجب جهده إذ نجم[8] شاعر من

---

(١) أعتز لى الجيد .
(٢) الخداع فى البيع .
(٣) يثب فى ارتفاع .
(٤) القانون أو العادة : كلمة معربه .
(٥) يخرج هنا بمعنى : يغدق ، والمعنى أن هذا الذى رسمته لك يوفر لنا ما كنت ستأكله .
(٦) الشيخ الخراسانى .
(٧) من الدعوة إلى الطعام بقولى « هلم » .
(٨) أى أحتجب عن الناس على قدر ما أمكنه ونجم أى ظهر .

بين يديه فأنشده شعرًا مدحه فيه وقرظه ومجده ، فلما فرغ قال : « قد أحسنت » . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ! ففرح الشاعر فرحًا قد يستطار[1] له . فلما رأى حاله قال : وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ! اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفا ! فكاد الفرح يقتله .

فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت ـ جعلت فداك ـ رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتنى قد ازددت فرحًا زدتنى فى الجائزة وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له[2] ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما ، تأمر بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئًا ؟ قال : ومن انفاذ أمرك بد ؟ قال : يا أحمق ! إنما هذا رجل سرنا بكلام ، وسررناه بكلام ! هو حين زعم أنى أحسن من القمر . وأشد من الأسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أمرى أنفذ من السنان ، جعل فى يدى من هذا شيئًا أرجع به إلى شىء ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكنه قد سرنا حين كذب لنا ، فنحن أيضًا نسره بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذبا ، فيكون كذب بكذب ، وقول بقول ، فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل فهذا هو الخسران الذى ما سمعت به .

ويقال إن هذا مثل الذى قد جرى على ألسنة العوام من قولهم : ينظر إلىَّ شزرًا كأنى أكلت اثنين ، وأطعمته واحدا . إنما هو لاهل مرو .

* رجل يبنى داره ببغداد :

قال[3] : وقلت لأحمد بن هشام ـ وهو يبنى داره ببغداد ـ إذا أراد الله ذهاب مال رجل سلط عليه الطين والماء . قال : لا بل إذا أراد الله ذهاب مال رجل جعله يرجو الخلف[4] والله ما أهلك الناس ، ولا أفقر بيوتهم ، ولا ترك دورهم بلاقع[5] ، إلا الإيمان بالخلف . وما رأيت جنة قط أوقى من اليأس .

---

(١) أى كاد يطير فرحًا .

(٢) أى أن قبول الزيادة منك ليس من الشكر لك ، لأنه يدل على أنى استقل العطية فأريد أن استكثر منها .

(٣) أى محمد بن يسير السابق ذكره .

(٤) العوض من المال الذاهب ، لأن الذى يعتقد أن من ينفق يخلف الله عليه لايئى عن الإنفاق .

(٥) أى مقفرة ، خربة .

* من المراوزه :

قال : وسمع رجل من المراوزة الحسن وهو يحث الناس على المعروف ، ويأمر بالصدقة ، ويقول : ما نقص مال قط من زكاة . ويعدهم سرعة الخلف ، فتصدق بماله كلية ، فأفتقر ! فانتظر سنة وسنة ، فلما لم ير شيئاً بكر على الحسن فقال حسن ، ماصنعت بى ! ضمنت لى الخلف ، فانفقت على عدتك[1] وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة انتظر ما وعدت ، لأرى منه قليلاً ولا كثيراً هذا يحل لك؟ اللص كان يصنع بى أكثر من هذا؟ . والخلف[2] يكون معجلاً ومؤجلاً . ومن تصدق وتشرط الشروط ، استحق الحرمان . ولو كان هذا على ما توهمه المروزى لكانت المحنة فيه ساقطة[3] ولترك الناس التجارة ، ولما بقى فقير ، ولذهبت العبادة .

* احترقت دار ثمامة :

وقيل : أصبح ثمامة شديد الغم حين احترقت داره ، وكان كلما دخل عليه إنسان قال : الحريق سريع الخلف ، فلما كثر ذلك القول منه قال فلنستحرق الله[4] اللهم انى استحرقك فأحرق كل شيء لنا . وليس هذا الحديث من حديث المراوزة ، ولكنا ضمناه إلى ما يشاكله .

* ما قاله سجادة :

قال سجادة ـ وهو أبوسعيد سجادة ـ إن إناساً من المراوزة إذا لبسوا الخفاف فى الستة الأشهر التى لا ينزعون فيها خفافهم[5] يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر ، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر ، حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلاّ ثلاثة أشهر مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب[6] .

* الجار المروزى :

وحكى أبو إسحاق إبراهيم بن يسار النظام ، عن جاره المروزى : أنه كان لا يلبس خفًا ولا نعلاً إلى أن يذهب النبق اليابس ، لكثرة النوى فى الطريق والأسواق .

قال : ورآنى مرة مصصت قصب سكر ، فجمعت ما مصصت ماءه لأرمى به ، فقال : إن كنت لا تنور[7] لك ولا عيال ، فهبه لمن له تنور ، وعليه عيال ، وإياك أن تعود نفسك هذه العادة فى أيام خفة ظهرك[8] ، فإنك لا تدرى ما يأتيك من العيال .

---

(١) وعدك .
(٢) هذا الكلام من تعقيب الجاحظ .
(٣) المحنة : اختبار ، والمعنى أنه لو كان ذلك صحيحاً لما كان لاختبار الله أيانا بفرض الزكاة قيمة ، لأن البخيل حينئذ يتصدق طمعًا فى الكسب .
(٤) أى فلنطلب من الله أن يحرق أشياءنا . لكى يعوضنا منها خلفاً .
(٥) جمع خف . والنزع لشدة البرد .
(٦) ترق وتوشك على البلى .
(٧) لا فرن لك ولا عيال .
(٨) من حمل العيال

* أهل البصيرة من المسجديين :

قال أصحابنا من المسجديين[1] :

اجتمع ناس فى المسجد ، ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة والتنمية للمال ، من أصحاب الجمع والمنع . وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يجمع على التناصر . وكانوا إذا التقوا فى حلقهم تذاكروا هذا الباب ، وتطارحوه ، وتدارسوه ، التماسًا للفائدة ، واستمتاعًا بذكره .

* صاحب الحمار والماء :

قال شيخ منهم : ماء بئرنا . ثم قد علمتم . مالح أجاج لا يقربه الحمار ، ولا تسيغه الإبل ، وتموت عليه النخل ، والنهر منا بعيد ، وفى تكلف العذب علينا مؤونة ، فكنا نمزج منه للحمار ، فاعتل[2] منه وانتقض علينا[3] من أجله ، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفًا . وكنت أنا والنعجة[4] كثيرًا ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار . فكان ذلك الماء العذب الصافى يذهب باطلاً . ثم انفتح لى فيه باب من الإصلاح ، فعمدت إلى ذلك المتوضأ ، فجعلت فى ناحية منه حفرة ، وصهرجتها[5] ، وملستها ، حتى صارت كأنها صخرة منورة ، وصوبت إليها المسيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيًا لم يخالطه شىء ، والحمار أيضًا لا تقزز له من ماء الجنابة . وليس علينا حرج فى سقيه منه ، وما علمنا أن كتابًا حرمه ، ولا سنة نهت عنه . فربحنا هذه منذ أيام ، وأسقطنا مؤونة عن النفس والمال .

* قصة مريم الصناع :

فأقبل عليهم شيخ فقال : هل شعرتم بموت مريم الصناع[6] فإنها كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبه إصلاح . قالوا : فحدثنا عنها . قال : نوادرها كثيرة ، وحديثها طويل ، ولكنى أخبركم عن واحدة فيها كفاية . قالوا وما هى ؟ قال :

زوجت ابنتها وهى بنت اثنتى عشرة ، فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروى[7] والموشى والقز والخز ، وعلقت المعصفر[8] ، ودقت الطيب ، وعظمت أمرها فى عين الختن[9] ، ورفعت

(١) أى الذين يلزمون المساجد . ويجتمعون فى المسجد . ويتخذون البخل نحلة ومذهبا فى النفقة والتنمية للمال ـ وهم من أصحاب الجمع والمنع .

(*) فى نسخ : (قصة أهل البصيرة من المسجدين) وفى أخرى (قصة أهل البصرة من المسجدين) .

(٢) أحجم وامتنع .

(٣) عصانا .

(٤) الزوجه .

(٥) عملتها بالصاروج وهو القطران .

(٦) الماهرة المدبرة .

(٨) المصبوغ بالعصفر .

(٧) نسبة إلى مرو .

(٩) الأقارب والأهل والمعارف .

من قدرها عند الأحماء[1] ، فقال لها زوجها : أنىَّ هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله ! قال : دعى عنك الجملة ، وهاتى التفسير ، ولله ما كنت ذات مال قديما ، ولا ورثته حديثا ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك ، إلَّا أن تكونى قد وقعت على كنز ، وكيف دار[2] الامرفقد أسقطت عنى مؤونة ، وكفيتنى هذه النائبة . قالت : اعلم أنىّ منذ يوم ولدتها ، إلى أن زوجتها ، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة ، وكنا ـ قد علمت ـ نخبز فى كل يوم مرة ، فإذا اجتمع من ذلك مكوك[3] بعته . قال زوجها : ثبت الله رأيك ، وأرشدك ، ولقد أسعد الله من كنت له سكنًا ، وبارك لمن جعلت له ألفا . ولهذا وشبهه قال رسول الله ﷺ : « **من الذود إلى الذود إبل** »[4] . وإنى لأرجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح ، وعلى مذهبك المحمود ، وما فرحى بهذا منك بأشد من فرحى بما يثبت الله بك فى عقبى[5] من هذه الطريقة المرضية ! .

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها ، وصلوا عليها . ثم انكفأوا إلى زوجها فعزوه على مصيبته ، وشاركوه فى حزنه .

ثم اندفع منهم فقال :

* صاحب السفط :

يا قوم ! لا تحقروا صغار الأمور ، فإن أول كل كبير صغير ، ومتى شاء الله أن يعظم صغيرًا عظمه ، وأن يكثر قليلاً كثره ، وهل بيوت الأموال إلا درهم إلى درهم ؟ وهل الذهب إلا قيراط إلى جنب قيراط ؟ وليس كذلك رمل عالج[6] وماء البحر ؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم ها هنا ، ودرهم من ها هنا ؟ فقد رأيت صاحب سفط[7] قد اعتقد مائة جريب[8] فى أرض العرب ، وربما رأيته يبيع الفلفل بقيراط ، والحمص بقيراط ، فاعلم أنه لم يربح فى ذلك الفلفل إلا الحبة[9] والحبتين من خشب الفلفل ، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار ، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب .

* شيخ يشتكى صدره :

ثم قال : اشتكيت أيامًا صدرى من سعال كان أصابنى فأمرنى قوم بالفانيذ السكرى[10] وأشار

---

(١) أقارب الزوج ، وهذا كما نقول فى عاميتنا (طولت رقبتها) .
(٢) كيف كان . (٣) مكيال .
(٤) الزود من الإبل : ثلاث إلى عشر ، أى إذا اجتمعت القليل إلى القليل صار كثيرًا . وترويه كتب الأمثال من غير (من) على أنه مثل لا حديث وقد أخطأ الجاحظ فى ذلك .
(٥) طريق . (٦) مكان كثير الرمل . (٧) بائعًا يحمل سفطًا (قفة) .
(٨) أقتى قطعة أرض . (٩) جزء صغير من الدرهم . (١٠) نوع من الحلوى معرب .

على آخرون بالحريرة تتخذ من النشاشتج[1] والسكر ودهن اللوز ، وأشباه ذلك . فاستثقلت المؤونة ، وكرهت الكلفة ، ورجوت العافية ، فبينما أنا أدافع الأيام ، إذ قال لى بعض الموفقين : عليك بماء النخالة فاحسه[2] حارًا . فحسوت ، فإذا هو طيب جدًا ، وإذا هو يعصم[3] فما جعت و لاشتهيت الغداء فى ذلك اليوم إلى الظهر . ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى ، حتى قاربت العصر ، فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى ، طويت العشاء ، وعرفت قصدى[4] .

فقلت للعجوز : لم لا تطبخين لعيالنا فى كل غداة نخالة ؟ فإن ماءها جلاء للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ! ثم تجففين بعد[5] النخالة ، فتعود كما كانت ، فتبيعينه إذا اجتمع بمثل الثمن الأول .. ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين ! قالت : أرجوا أن يكون الله قد جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة ، التى فيها صلاح بدنك ، وصلاح معاشك .

وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق !

قال القوم : صدقت مثل هذا لا يكتسب بالرأى ، ولا يكون إلا سماويًا .

* الحراق والقداحة :

ثم أقبل عليهم شيخ آخر فقال :

كنا نلتقى من الحراق والقداحة جهدًا[6] ، لأن الحجارة كانت إذا انكسرت حروفها ، واستدارت ، كلت ولم تقدح قدح خير . وأصلدت فلم تور[7] ، وربما أعجلنا المطر والوكف[8] وقد كان الحجر[9] أيضًا يأخذ من حروف القداحة حتى يدعها كالقوس ، فكنت أشترى المرقشيثا[10] بالغلاء ، والقداحة الغليظة بالثمن الموجع . وكان علينا أيضًا فى صنعة الحراق ، وفى معالجة القطنة مؤنة . وله ريح كريهة . والحراق لا يجىء من الخرق المصبوغة ، ولا من الخرق الوسخة ، ولا من الكتان ، ولا من الخلقان فكنا نشتريه بأغلى ثمن . فتذاكرنا منذ أيام أهل البدو

---

(١) الحريرة : نوع من حلوى تصنع من النشاشتج وهو النشا وما ذكره بعده .
(٢) أشربه شيئًا فشيئًا .
(٣) يمنع من الجوع .
(٤) أى عرفت طريقى فى الطعام التى أحب أن أتبعها .
(٥) بعد الطبخ .
(٦) القداحة : الحجر الذى تقدح به النار ، والحراق : ما تشعل فيه عند القدح ، والجهد : المشقة .
(٧) لن تخرج نارًا .
(٨) نزول المطر .
(٩) الذى تضرب به القداحة .
(١٠) حجر النار . ويمتاز بأنه لا يتفتت عند القدح عليه

والأعراب ، وقدحهم الناس بالمرخ والعفار[1] ، فزعم لنا صديقنا الثورى ـ وهو ما علمت أحد المرشدين ـ أن عراجين الاعذاق[2] تنوب عن ذلك أجمع ، وعلمنى كيف تعالج ، ونحن نؤتى بها من أرضنا بلا كلفة . فالخادم اليوم لا تقدح ولا تورى إلا بالعرجون .

قال القوم : قد مرت بنا اليوم فوائد كثيرة : ولهذا قال الأول[3] : « مذاكرة الرجال[4] ، تلقح الألباب[5] » .

* معاذة العنبرية :

ثم اندفع شيخ منهم فقال :

لم أر فى وضع الأمور مواضعها ، وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية . قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال : أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية ، فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة وليس لى قيم ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ، ويقومون بحقه ، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ، ولا فى غيرها ، شيئًا لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة . ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير .

أما القرن فالوجه فيه معروف : وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه الزبل[6] والكيران[7] ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان[8] والحيات وغير ذلك . أما المصران ، فإنه لاوتار المندفة[9] ، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس ، واللحيان[10] وسائر العظام : فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق[11] ثم يطبخ ، فما ارتفع من السم كان للمصباح وللأدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقودًا قط أصفى ولا أحسن لهبًا منه . وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر[12] ، لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الاهاب : فالجلد نفسه جراب . وللصوف وجوه

---

(١) المرخ هو شجر سريع الاشتعال ، والعفار : شجر يتخذ منه الزند الذى تقدح به النار .
(٢) عراجين النخل وفروعه .
(٣) السابق من الحكماء .
(٤) مبادلتهم الحديث .
(٥) تجعلها مثمرة .
(٦) أوعية مثل (القفف) .
(٧) أمتعة . البيت .
(٨) الصراصير .
(٩) التى يندف بها القطن .
(١٠) مثنى لحى وهو عظم الفك .
(١١) يؤكل ما عليه من اللحم .
(١٢) أى فى أحيائها .

لا تعد . وأما الفرث[1] والبعر فحطب إذا جفف عجيب .

ثم قالت : بقى الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله ـ عز وجل ـ لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لن أقع على علم ذلك ـ حتى يوضع موضع الانتفاع به ـ صار كية[2] فى قلبى ، وقذى[3] فى عينى ، وهما لا يزال يعاودنى . فلم ألبث أن رأيتها قد تطلقت[4] وتبسمت ، فقلت : ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم . قالت : أجل ! ذكرت أن عندى قدور ! شامية جددا . وقد زعموا : أنه ليس شىء أدبغ ولا أزيد فى قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن ، إذ وقع كل شىء موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة ؟ قالت بأبى أنت ! لم يجىء وقت القديد بعد ، لنا فى الشحم والآلية والجنوب والعظم المعرق وغير ذلك معاش ! ولكل شىء إبان .

فقبض صاحب الحمار[5] والماء العذب قبضة من حصى ، ثم ضرب بها الأرض[6] ، ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين ، حتى تسمع بأخبار الصالحين !

* قصة زبيدة بن حميد :

وأما زبيدة بن حميد الصيرفى ، فإنه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا ، فلما قضاه[7] بعد ستة أشهر ، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير[8] . فاغتاظ البقال ، فقال : سبحان الله ! أنت رب مائة ألف دينار ، وأنا بقال لا أملك مائة فلس ، وإنما أعيش بكدى وباستفضال[9] الحبة والحبتين . صاح على بابك حمال والمال لم يحضرك ، وغاب وكيلك ، فنقدت[10] عنك درهمين وأربع شعيرات ، فقضيتنى بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات ؟ فقال زبيدة : يا مجنون ! أسلفتنى فى الصيف ، فقضيتك فى الشتاء ، وثلاث شعيرات شتوية ندية

---

(١) ما فى الكرش .
(٢) من الكى .
(٣) ما يدخل العين من تراب ونحوه .
(٤) انشرحت .
(٥) الذى سبقت حكايته .
(٦) تعبير عن أعجابه .
(*) إلى هنا تنتهى « قصة اهل البصيرة من المسجدين » . وهى القصة الثالثة فى كتاب البخلاء بعد المقدمة المطولة والتى جعل عنوانها « رَبِّ أنعمت فزِد » .
(٧) دفع له ما عليه .
(٨) أى مقدار وزنها من الفضة .
(٩) بإدخار .
(١٠) أى فاعطيت الحمال .